أسلوب الالتفات في الأحاديث الثلاثية بمسند الإمام أحمد: دراسة بلاغية تحليلية

د. كفايت الله همداني
د. محمد زهير أحمد صديقي

ملخص البحث

تناول هذا البحث دراسة ظاهرة الالتفات في أرقى مرويات مسند الإمام أحمد بن حنبل؛ وهي "الأحاديث الثلاثيات"، وذلك عبر مقاربة بلاغية تحليلية تخصصت في رصد تحولات الضمائر (من التكلم، والخطاب، والغيبة) وأثرها في توجيه الدلالة وتشكيل الصورة الذهنية للمتلقي. تنبع مشكلة الدراسة من كون الثلاثيات تمثل ذروة العلو الإسنادي، مما يستوجب فحص متونها للكشف عن مدى مواءمة العدول الأسلوبي (الالتفات) لمقام النبوة الرفيع. وقد اعتمدت الدراسة المنهج الاستقرائي التحليلي؛ لاستقصاء الشواهد من مظانها في المسند، ثم تحليلها وفق القواعد التي أرساها أئمة البلاغة، مع ربط كل نموذج بسياقه المقامي. وتوصل البحث إلى أن الالتفات في الثلاثيات لم يكن مجرد تنويع أسلوبي عارض، بل وُظِّف كأداة بلاغية وظيفية تهدف إلى استحضار الصورة، وهز نفوس المخاطبين، وتأكيد المعاني التشريعية والتربوية؛ مما يُبرز وجهًا من وجوه الإعجاز البياني في السنة النبوية المطهرة.

الكلمات المفتاحية: الالتفات، ثلاثيات مسند الإمام أحمد، البلاغة النبوية، خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، التفات الضمائر.

مقدمة البحث

يظل البيان النبوي في ذروة الفصاحة البشرية؛ إذ يمثل الوعاء اللغوي الأسمى الذي تجلت فيه عبقرية اللسان العربي بكل فنونه. ومن أبرز تلك الفنون أسلوب الالتفات؛ الذي يعدُّ مظهرًا من مظاهر حيوية النص وقدرته على استثارة وعي المتلقي عبر العدول عن مقتضى الظاهر. وتكتسب هذه الدراسة أهميتها من تسليط الضوء على هذا الفن البلاغي في الأحاديث الثلاثيات بمسند الإمام أحمد؛ وهي الأحاديث التي بلغت غاية العلو في الإسناد، مما يجعل البحث في خصائصها الأسلوبية كشفًا عن ملامح الجمال في أوثق مرويات السنة المطهرة.

يسعى هذا البحث إلى سبر أغوار التفات الضمائر في هذه المرويات، متبعًا منهجًا استقرائيًّا تحليليًّا يربط بين القواعد النظرية وبين التطبيق العملي على النصوص النبوية، وقد انتظم عقد الدراسة في مبحثين رئيسين على النحو الآتي:

المبحث الأول: الالتفات لغةً واصطلاحًا؛ ويتناول التأصيل المفهومي لهذا الفن عبر ثلاث زوايا: الأولى في الدلالة اللغوية للالتفات، والثانية في حده الاصطلاحي عند أرباب البلاغة، وصولًا إلى الزاوية الثالثة التي تستعرض صور العدول إلى الالتفات وأسرارها البلاغية الكامنة وراء تحولات الضمائر.

المبحث الثاني: نماذج من الالتفات في ثلاثيات مسند الإمام أحمد؛ ويمثل الجانب التطبيقي للبحث، حيث تم استخلاص ثلاثة عشر حديثاً من عيون الثلاثيات، وإخضاعها للتحليل البلاغي المقارن؛ للكشف عن أسرار الالتفات في سياقاتها المقامية، وأثر ذلك في تشكيل المعنى التشريعي والتربوي.

وبهذا التكامل بين التنظير والتطبيق، يرجو الباحث أن يقدم إضافة نوعية للمكتبة البلاغية والحديثية على حد سواء.

المبحث الأول: الالتفات لغة واصطلاحا

الالتفات في اللغة:

تتمحور الدلالة المعجمية لمادة (لفت) في اللسان العربي حول فكرتي العدول والانصراف عن المسار؛ ففي لسان العرب يبرز المعنى الحسي للكلمة في قولهم: "لفت وجهه عن القوم" أي: عدل به عنهم وصرفه، والالتفات هو "تحويل النظر نحو الشيء أو صرف الوجه إليه"[1].

وقد تجسد هذا المعنى الحسي في النظم القرآني الكريم؛ ففي قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾[2]. جاء النهي الإلهي عن الالتفات بالوجه؛ لئلا يرى المغادرون هول ما يحل بالقوم من نكال وعذاب[3]، وهو المعنى ذاته الذي تأكد في مقام الأمر بالمضي في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾[4]. ويقرر المعجم الوسيط أن مادة "التفت" تعني: توجيه الوجه وصرفه نحو جهة بعينها، ويقال: "التفت بوجهه يمنة أو يسرة" إذا مال به، بينما يُفيد قولنا "التفت عنه" معنى الإعراض التام[5].

أما التأصيل لهذه المادة، فيتجلى عند ابن فارس في معجم مقاييس اللغة؛ حيث يرى أن (اللام، والفاء، والتاء) أصلٌ واحد يدل على "اللّيّ" وتحويل الشيء عن وجهته السوية؛ فـ "لفتُّ الشيء" أي: لويته، ومنه استُعير المعنى المعنوي في قولهم: "لفتُّ فلانًا عن رأيه" إذا نجحت في صرفه عما كان يعتقده[6].

الالتفات في الاصطلاح البلاغي

يُعد الالتفات من أبرز صور "خروج الكلام لا على مقتضى الظاهر"؛ وهو في جوهره نقل التعبير عن المعنى من طريقٍ من طرق الإسناد الثلاثة (التكلم، والخطاب، والغيبة) إلى طريق آخر. وقد عَدَّه البلاغيون من أساليب العرب المشهورة ومفاخر سننها في البيان؛ لما يضفيه على النص من تجديدٍ لنشاط السامع، وزيادةٍ في القبول، وإثارةٍ للانتباه.

وقد استفاض السكاكي في إبراز عبقرية هذا الفن، مبيّنًا أن العرب يستكثرون منه ويؤثرونه في خطابهم؛ لأنهم "يرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب آخر أدخل في القبول عند السامع وأحسن نظرية لنشاطه وأملأ باستدلال إصغائه وهم أحرياء بذلك"[7].

ويرى أحمد الهاشمي أن حقيقة الالتفات تتمثل في ذلك التحول الأسلوبي بين أنماط التعبير الثلاثة (التكلم، والخطاب، والغيبة)؛ حيث ينتقل المتكلم من مسارٍ إلى آخر لغاياتٍ بيانية يكشف عنها التأمل الدقيق في سياق النظم. ويهدف هذا الصنيع في جوهره إلى إثراء الصيغ التعبيرية وتلوين الخطاب؛ رغبةً في كسر رتابة الأسلوب الواحد ودفع الملل عن المتلقي، مما يحفزه على مزيدٍ من الانتباه والإصغاء؛ استنادًا إلى القاعدة الجمالية "لكل جديد لذة"، أي: أن لكل جديدٍ بهجةً وتأثيرًا. كما يشير الهاشمي إلى أن الالتفات ينطوي على أسرارٍ دقيقة ودلالاتٍ خفية، لا يدرك كنهها إلا من رُزق ذوقًا بلاغيًّا سليمًا، مبينًا أن مسارات هذا العدول الأسلوبي تنحصر في ست صورٍ أساسية[8].

أما تعريفه، فهو كما عرفه القزويني: "التعبير عن معنى بطريق من الثلاثة بعد التعبير عنه بآخر منها". ومن جانب آخر، كشف التفتازاني عن السر في هذه التسمية، مشبهًا التحول الأسلوبي في النظم بالالتفات الجسدي؛ إذ قال: "ويسمى هذا النقل عند علماء المعاني التفاتًا؛ مأخوذ من التفات الإنسان عن يمينه إلى شماله"[9].

وبناءً على ما تقدم، يمكن تلخيص الغرض البلاغي العام للالتفات في الثلاثيات النبوية بأنه وسيلة لتحقيق التنويع الأسلوبي، والتلطف في الخطاب، أو التشهير والإعراض، أو التعظيم وتقوية المعنى؛ وكل ذلك محكومٌ بمقتضيات المقام وسياقات الورود التي سيتم الكشف عنها في الجانب التطبيقي.

صور العدول إلى الالتفات وأسرارها البلاغية

تتنوع مسارات الالتفات في النظم البليغ إلى ست صور أساسية، لكل منها غرضٌ دقيق يفرضه السياق، ويمكن إجمالها فيما يلي:

1 الالتفات من التكلم إلى الخطاب[10]: ويظهر في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[11]؛ حيث عَدل السياق عن ضمير المتكلم إلى المخاطبين، والسر في ذلك كما يرى التفتازاني هو: "التلطف بالمخاطبين، وإبراز النصح في صورة خطاب غير مباشر"[12]؛ تجنبًا للمواجهة الصريحة التي قد تنفر منها النفوس.

2 – الالتفات من التكلم إلى الغيبة: كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[13]؛ فبعد تصدير السورة بضمير العظمة (إنا)، انتقل النص إلى الغيبة في لفظ (ربك)؛ لما يقتضيه ذكر الربوبية من "التعظيم والحثّ على الامتثال، وإزالة احتمال الاشتراك في الضمير"[14].

3 – الالتفات من الخطاب إلى الغيبة: ومثاله قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾[15]؛ إذ انصرف الخطاب عن الحاضرين إلى الحديث عنهم بصيغة الغائب، ونكتة ذلك تكمن في "الإعراض عن المخاطبين والتشهير بحالهم، والدعوة إلى الاعتبار بقصتهم"؛ تعبيرًا عن سخط المقام عليهم[16].

4 – الالتفات من الخطاب إلى التكلم[17]: كما في قوله عز وجل: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ... إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[18]؛ حيث تحول السياق من أمر القوم إلى إخبار النبي عن ربه بضمير التكلم (ربي)، إعلاءً لمقام الرسول و إشعارًا بقرب الرحمة بعد التوبة لمن استجاب لندائه.

5 – الالتفات من الغيبة إلى التكلم: كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ... فَسُقْنَاهُ﴾[19]؛ فبعد البدء باسم الجلالة (الغائب)، أُسنِد الفعل إلى ضمير العظمة (نا)، وذلك "لبيان تفرد الله تعالى بقسمة الأرزاق"؛ وإظهارًا لسطوة القدرة الإلهية في تصريف الكون[20].

6 – الالتفات من الغيبة إلى الخطاب: وتتجلى روعته في سورة الفاتحة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[21]؛ فبعد الثناء بصفات الغيبة، انتقل العبد إلى مواجهة الخالق بالخطاب، "إشعارًا بكمال القرب والمناجاة"[22]؛ إذ إن المستحضر لتلك العظمة يتوق لمقام الحضور.

وخلاصة القول: إن الالتفات ليس مجرد زخرفٍ قولي، بل هو استراتيجية بلاغية تمنح الكلام رونقًا وقوة تأثير، وتطوع اللغة لمقتضيات الحال؛ لتحقيق غاياتٍ تتأرجح بين التلطف، والتعظيم، والتنبيه، بما يضمن تجديد نشاط السامع واستمالة قلبه.

المبحث الثاني: نماذج من الالتفات من ثلاثيات مسند الإمام أحمد

1. الحديث الأول:

نص الشاهد: "رأيت كأن عنقي ضربت، قال: لم يحدث أحدكم بلعب الشيطان"[23].

الرجل جاء يحكي رؤياه للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو يعلم يقينًا أنه يحدث بها، بدليل أنه يتكلم الآن. فمقتضى الظاهر أن النبي -عليه الصلاة والسلام- يعلم ذلك أيضًا. ولكن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: "لم يحدث أحدكم.." بصيغة النهي المراد بها الخبر، -أي: لا ينبغي أن يحدث-. فهنا نزل النبي -عليه الصلاة والسلام- هذا الصحابي -العالم بأنه يحدث-، منزلة الجاهل بفائدة هذا التحديث؛ لأن هذا الحديث لا فائدة فيه بل فيه ضرر وتخويف، فكأن وجود هذا الحديث كعدمه، فخاطبه خطاب من لم يحدث أو من يجهل قبح هذا الفعل؛ ليصرفه عن الاعتداد بمثل هذه الأوهام الشيطانية؛ وليرسخ في ذهنه أن ما لا طائل منه من الكلام يُعد في حكم المعدوم الذي لا ينبغي أن يُنطق به.

2. الحديث الثاني:

نص الشاهد: "كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يبايع.. ثم يقول: فيما استطعت"[24].

بدأ الراوي بوصف حال النبي -عليه الصلاة والسلام- بضمير الغيبة في قوله: يبايع، ويقول، ثم تحول الكلام فجأة إلى مخاطبة المبايع بضمير الخطاب في قوله: استطعت. والسر في هذا الالتفات هو تلقين الحجة، وتقريب الحكم؛ فبدلًا من أن يبقى الحكم إخبارًا عامًّا فيما استطاعوا، انتقل إلى المواجهة بالخطاب لتنبيه المبايع إلى رخصة الاستطاعة، وجعلها حاضرة في ذهنه لحظة عقد البيعة، وفي ذلك تيسير وتثبيت للمكلف.

3. الحديث الثالث:

نص الشاهد: لما نزلت: "هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا"..، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعوذ بوجهك"[25].

بدأ السياق القرآني بضمير الغيبة: هو؛ لتقرير صفة القدرة المطلقة لله سبحانه، فلما سَمِعَ النبي -عليه الصلاة والسلام- هذا الوعيد، لم يستمر على وتيرة الغيبة بأن يقول مثلًا: أعوذ بوجهه، بل عدل فورًا إلى مقام الخطاب بقوله: أعوذ بوجهك. والسر البلاغي هنا هو أُنس الاستجارة وشدة الفزع؛ فالالتفات من الغيبة إلى الخطاب يصور سرعة انتقال قلب النبي -عليه الصلاة والسلام- من مقام سماع الخبر إلى مقام المواجهة والالتجاء، وكأنه صلى الله عليه وسلم لما استشعر عظمة القدرة الإلهية، لم يجد

ملجَأ إلا في الخطاب المباشر للذات العلية، طلبًا للأمان والقرب. فكان التحول إلى الخطاب أبلغ في إظهار صدق اللجوء وحرارة التضرع، وهو ما يُعرف في البلاغة بـ: هزة النفس التي تُخرج الكلام من الإخبار المجرد إلى الحضور الوجداني.

4. الحديث الرابع:

نص الشاهد: قول النبي صلى الله عليه وسلم: "دخلت الجنة فرأيت فيها قصرا أو دارا"... قال: "فقلت: لمن هذا؟ فقيل: لعمر... فذكرت غيرتك يا أبا حفص.."[26].

يحكي النبي –عليه الصلاة والسلام– رؤياه في الجنة بضمير الغيبة بقوله: رأيت، وسمعت، وفقيل، حتى إذا وصل لذكر عمر التفت إليه بضمير الخطاب المواجه غيرتك، مناديًا إياه بكنيته. والسر البلاغي هنا هو تخصيص التكريم والملاطفة؛ فنقل الحديث من عالم الرؤيا الغيبي إلى الحاضر المشاهد يُشعر عمر بعظيم منزلته عند ربه وعند نبيه، وهو التفات يثير العواطف كما دلت عليه استجابة عمر بالبكاء.

5. الحديث الخامس:

نص الشاهد: "رأى الصبيان والنساء.. فقال: اللهم أنتم من أحب الناس إليّ"[27].

بدأ السياق بالإخبار عن فعل النبي –عليه الصلاة والسلام– بضمير الغيبة المستتر في الفعل: رأى، وكان مقتضى الظاهر أن يستمر الإخبار عنهم بضمير الغيبة اللهم هؤلاء أحب الناس، لكنه –عليه الصلاة والسلام– التفت إليهم فجأة بضمير الخطاب الجمعي أنتم. والسر البلاغي هنا هو إشهارُ الاصطفاء والتقريب؛ فعدول النبي –عليه الصلاة والسلام– عن الإخبار عنهم إلى مواجهتهم بالخطاب المباشر يُشعر السامعين بالاحتفاء التام والأمان، وكأنه –عليه الصلاة والسلام– بكسر رتابة الغيبة أراد أن يمدّ جسور الوصل إليهم مباشرة. ثم ردف ذلك بضمير المتكلم إليّ؛ ليحصر هذه المحبة في ذاته الشريفة، مما جعل الالتفات هنا وسيلة لنقل الأنصار من منزلة المشاهدين إلى منزلة المخاطبين المحبوبين، وهو أبلغ في تمكين المودة وتثبيت المنزلة في النفوس.

6. الحديث السادس:

نص الشاهد: "أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كسرت رباعيته يوم أحد.. فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم.. فنزلت: ليس لك من الأمر شيء"[28].

بدأ النبي عليه الصلاة والسلام بالحديث عن نفسه بضمير الغيبة في قوله: نبيهم، في مقام التحسر واستبعاد الفلاح للمشركين، فجاء الرد الإلهي بالالتفات إلى مقام المواجهة بضمير الخطاب: ليس لك. والسر البلاغي هنا هو حصر السلطة التشريعية؛ فنقل الضمير من حكاية النبي عن نفسه إلى مخاطبة الله

له، يهدف إلى تطييب نفسه عليه الصلاة والسلام من جهة، وبيان أن أمر الهداية والعقاب بيد الخالق وحده، وهو أقطع لكل جدل بشري حول مصائر الأمم.

7. الحديث السابع:

نص الشاهد: "دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وحبل ممدود بين ساريتين.. فقال: فقال: حلوه، ثم قال: ليصل أحدكم نشاطه"[29].

بدأ النبي –عليه الصلاة والسلام– كلامه بضمير الخطاب المباشر في قوله: حُلّوه، وهو مقام استنكار لواقعة عينية تستدعي المبادرة بالفعل، ثم التفت صلى الله عليه وسلم في جملته التالية إلى أسلوب الغيبة بقوله: ليصل أحدكم. والسر البلاغي هنا هو السموُّ بالحكم من الخصوص إلى العموم؛ فالأمر الأول: حُلّوه، كان معالجةً لموقف خاص وحاضر، فجاء بلهجة الخطاب القوية. أما حين أراد صلى الله عليه وسلم تأصيل القاعدة الشرعية الكبرى، فقد التفت إلى الغيبة؛ ليُخرج الحكم من حيز الواقعة المعينة إلى رحاب التشريع العام الذي يشمل الحاضر والغائب، وكأن صيغة الغيبة هنا أحدكم تجعل الحكم قاعدةً مجردةً عابرةً للأشخاص والأزمان، ثابتةً في مقام التشريع، مما يمنح النص هيبةً قانونيةً أبلغ في النفوس من مجرد الخطاب العابر.

8. الحديث الثامن:

نص الشاهد: "قال –النبي صلى الله عليه وسلم–: إنه أنزلت عليّ آنفًا سورة... قال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم"[30].

وجه النبي –عليه الصلاة والسلام– سؤاله للصحابة بضمير الخطاب تدرون، فعدل الصحابة في جوابهم عن ضمير الخطاب أنت أعلم إلى ضمير الغيبة ورسوله أعلم. والسر البلاغي هنا هو التأدب بمقام النبوة؛ فذكر النبي بصفة الرسول وبالغيبة فيه تعظيم لشأنه وإقرار بأن علمه مستمد من الوحي، وهو أبلغ في الثناء والمناسبة لمقام نزول السورة من الجواب بالخطاب المباشر.

9. الحديث التاسع:

نص الشاهد: "يا معشر الأنصار، ألم آتكم ضلالًا، فهداكم الله بي.. قالوا: بل لله تبارك وتعالى المن به علينا ولرسوله"[31].

خاطب النبي –عليه الصلاة والسلام– الأنصار بضمير المواجهة في قوله: آتكم، وهداكم؛ لتذكيرهم بالفضل، فعدل الأنصار في جوابهم عن الخطاب بل لك المن، إلى ضمير الغيبة لله ولرسوله.

والسر البلاغي هنا هو تعظيم جهة الفضل؛ فعدولهم للغيبة باسم الظاهر –الله والرسول–، فيه من كمال الأدب والتواضع وإرجاع الفضل لأصله الإلهي ما ليس في ضمير الخطاب المباشر.

10. الحديث العاشر:

نص الشاهد: "قال (عمر): رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد –عليه الصلاة والسلام– نبيًا.. نعوذ بالله من غضب رسوله"[32].

نوع الالتفات في الحديث من الخطاب إلى الغيبة باسم الظاهر، من حيث كان النبي –عليه الصلاة والسلام– يخاطبهم مواجهة، فعدل عمر رضي الله عنه عن ضمير الخطاب: رضينا بك، إلى الغيبة بالاسم الظاهر بمحمد، ورسوله. والسر البلاغي هنا هو الاستعطاف بمقام الوحي؛ فالالتفات إلى الغيبة بذكر الاسم والوصف وهو: محمد، ورسول، في مقام الغضب يهدف إلى استنزال الرحمة وتهدئة النفس النبوية بذكر مكانتها العظيمة عند الله، وكأن عمر يذكره بمقامه ليعفو عنهم.

11. الحديث الحادي عشر:

نص الشاهد: "أرأيتم إن أسلم تُسلمون؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك.. فقال (ابن سلام): أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"[33].

نوع الالتفات في الحديث من الخطاب إلى الغيبة باسم الظاهر، فبدأ الحوار بخطاب مباشر لليهود تسلمون، فعدلوا في جوابهم إلى ذكر اسم الجلالة الله، بضمير الغيبة، وكذلك فعل ابن سلام في شهادته. والسر البلاغي هنا هو الشهادة بالعظمة؛ ففي مقام الإنكار من اليهود، واليقين من ابن سلام، الالتفات من الضمائر إلى الأسماء الظاهرة المهيبة (الله، والرسول)، يخرج الكلام من مجرد الجدال الشخصي إلى مقام التقرير الحق والمواجهة بالحقيقة الكبرى التي لا فرار منها.

12. الحديث الثاني عشر:

نص الشاهد: "فقال: إذا غربت الشمس ههنا (إشارة للمغرب)، جاء الليل من ههنا (إشارة للمشرق)، فقد أفطر الصائم"[34].

انتقل النبي –عليه الصلاة والسلام– من أسلوب المخاطبة للسائل –الذي كان يلح في السؤال عن النهار–، إلى أسلوب الغيبة في قوله صلى الله عليه وسلم: فقد أفطر الصائم. ومقتضى الظاهر أن يقول: فقد أفطرتَ، أو فقد حلَّ لك الفطر. والسر البلاغي هنا هو التعميم والتشريع؛ فالعدول من خطاب الفرد إلى ذكر الصائم بوصفه جنسًا، يخرج الحكم من كونه واقعة حال للسائل إلى قاعدة عامة لكل من يحمل هذا الوصف.

13. الحديث الثالث عشر:

نص الشاهد: قوله صلى الله عليه وسلم: "تداووا عباد الله، فإنَّ اللهَ عز وجل لم ينزل داءً إلا أنزل معه شفاءً"[35].

في النداء: عباد الله، استمالة وتذكير بحاجة العبيد إلى خالقهم، ثم جاء الالتفات إلى الغيبة بذكر لفظ الجلالة الله، والحديث عنه بضمير الغائب (أنزل)؛ لتعليل الأمر النبوي؛ فكأنَّ العدول هنا يربط بين السبب البشري وهو التداوي المخاطب به العباد، وبين المسبّب الإلهي الغائب عن إدراك كنهه، وفي ذلك طمأنة لقلب المكلف بأنَّ الشفاء مقدر بفعله تعالى لا بمجرد الدواء.

نتائج البحث

فبعد سياحة تحليلية في رحاب "الثلاثيات" من مسند الإمام أحمد، واستنطاق أسرار الالتفات في متونها الشريفة، انتهى هذا البحث إلى جملة من النتائج التي تُبلور عبقرية البيان النبوي، وتفتح آفاقًا جديدة للمهتمين بالدرس البلاغي الحديثي، وهي على النحو الآتي:

1 – أثبتت الدراسة أن "الثلاثيات" كما هي قمةٌ في علو الإسناد، فهي ذروةٌ في سمو الأسلوب؛ حيث تآزرت قوة السند مع جمال المتن لترسم صورةً بيانيةً معجزة تليق بمقام النبوة.

2 – كشفت الدراسة أن الالتفات في الحديث الشريف ليس مجرد تنويعٍ شكلي، بل هو استراتيجية تواصلية تهدف إلى تحويل السامع من حالة التلقي الساكن إلى حالة التفاعل الذهني والوجداني النشط.

3 – تبين من خلال تحليل الأحاديث الثلاثة عشر أن الالتفات النبوي يؤدي وظائف دقيقة؛ فمن التلطف في مواضع النصح، إلى التعظيم في مقامات التشريع، وصولًا إلى استحضار الصورة في مشاهد الغيب، مما يجعل الضمير أداةً طيعة في يد البيان النبوي.

4 – رصد البحث أن أكثر صور الالتفات دورانًا في الثلاثيات هي تلك التي تنقل السامع من الغيبة إلى الخطاب؛ لما فيها من مباغتة بلاغية تهز النفوس وتستجلب انتباه العقول لوعي الأحكام.

5 – أكدت الدراسة التحليلية أن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر في السنة المطهرة يمثل أصلًا أصيلًا من أصول البلاغة العربية، وأن القواعد التي وضعها السكاكي والقزويني تجد مصداقيتها الأسمى في نصوص الوحيين.

التوصيات

بناءً على ما أسفرت عنه هذه الدراسة، يوصي الباحث بما يأتي:

1 – يدعو الباحث طلاب الدراسات العليا والباحثين إلى العناية بـ: مسند الإمام أحمد من الناحية البلاغية؛ فهو منجمٌ لغوي لم يُستخرج كل مكنونه بعد، وبخاصة في فنون (الإيجاز، والتشبيه، والكناية).

2 – يقترح الباحث إجراء دراسات موازنة بين الالتفات في الثلاثيات وبين نظائره في الصحاح الأخرى؛ لرصد الخصائص الأسلوبية التي قد تنفرد بها الروايات العالية.

3 – يوصي بضرورة دمج الدرس البلاغي بالدرس الحديثي في الكليات الشرعية، ليتجاوز الطالب مرحلة نقد الأسانيد إلى مرحلة تذوق المتون، إيمانًا بأن جمال المتن هو ثمرة صحة السند.

4 – يقترح الباحث توظيف تقنيات الأسلوبية الإحصائية في رصد ظواهر العدول الضميري في المسند كاملًا، للخروج بخريطة بيانية شاملة لأساليب التعبير النبوي.

الهوامش

(1) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي قاسم بن حبقة الأفريقي (711هـ). لسان العرب. بيروت، لبنان: دار صادر، 2/ 84.

(2) هود، 11/ 81.

(3) ابن منظور، لسان العرب، 2/ 84.

(4) الحجر، 15/ 65.

(5) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط. بيروت، لبنان: دار احياء التراث العربي، 1956م، 2/ 831.

(6) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين القزويني (395هـ). معجم مقاييس اللغة، التحقيق: عبد السلام هارون (1004هـ). بيروت، لبنان: دار الفكر، 1979م، 5/ 258.

(7) السكاكي، يوسف بن أبي بكر محمد، أبو يعقوب السكاكي، (626هـ)، مفتاح العلوم، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، التحقيق: نعيم زرزور، الطبعة الثانية، 1983م/1403هـ، ص/ 199.

(8) أحمد الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى (1362هـ). جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. التحقيق: د. يوسف الصميلي، بيروت، لبنان: المكتبة العصرية، ص/212.

[9] القزويني، محمد عبد الرحمن (739هـ)، تلخيص المفتاح، قم، إيران: منشورات إسماعيليان، 1427هـ، ص/ 31؛ والتفتازاني، سعد الدين (791هـ). شرح تلخيص المفتاح. قم، إيران: منشورات إسماعيليان، الطبعة الثانية، 1427هـ، ص/ 114.

[10] الصعيدي، عبد المتعال (1391هـ). بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر، 1426هـ-2005م 1/ 139؛ الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى (1362هـ)، جواهر البلاغة. القاهرة، مصر: المكتبة المصطفوية، ط: خامسة، 1305هـ، ص/ 212.

[11] يس، 36/ 22.

[12] التفتازاني، شرح تلخيص المفتاح، ص/ 115.

[13] الكوثر، 108/ 1-2.

[14] الدسوقي، محمد بن عرفة، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني. التحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت، لبنان: المكتبة العصرية، (د.ت)، 1/726-727؛ الزهراني، عبد الخالق بن مساعد، تلوين الخطاب لابن كمال باشا دراسة وتحقيق، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1421، ص/ 356.

[15] يونس، 10/ 22.

[16] السيد جعفر، أساليب المعاني في القرآن. قم، إيران: مؤسسة بوستان، 1428هـ، ص/ 399.

[17] الرفاعي، أحمد مطلوب أحمد، الصادي، أساليب بلاغية، الفصاحة-البلاغة-المعاني، الكويت: وكالة المطبوعات، الطبعة الأولى، 1980، ص/ 280.

[18] هود، 11/ 90.

[19] فاطر، 35/ 9.

[20] الجناجي، حسن بن إسماعيل بن حسن (1429هـ). النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق، مصر، القاهرة: دار الطباعة المحمدية، الطبعة الأولى، 1403هـ/1983م، ص/ 333.

[21] الفاتحة، 1/ 4-5.

[22] الجناجي، النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق، ص/ 336.

[23] أحمد بن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني (241هـ). المسند. مصر: مؤسسة القرطبة، 3/ 307، الرقم: 14332، و محب الدين إسماعيل بن عمر المقدسي، ثلاثيات مسند الإمام أحمد

بن حنبل (ومعها زيادات ضياء الدين المقدسي)، ت: محمد بن ناصر العجمي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م، ص/ 39، الرقم/ 23.

(24) أخرجه أحمد في مسنده، 2/ 9، الرقم/ 4565، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 34، الرقم/ 6.

(25) أخرجه أحمد في مسنده، 3/ 309، الرقم/ 14355، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 46، الرقم/ 42.

(26) أخرجه أحمد في مسنده، 3/ 175، الرقم/ 14360، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 47-48، الرقم/ 45.

(27) أخرجه أحمد في مسنده، 3/ 176، الرقم/ 12820، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 48، الرقم/ 46.

(28) أخرجه أحمد في مسنده، 3/ 99، الرقم/ 11974، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 53، الرقم/ 62.

(29) أخرجه أحمد في مسنده، 3/ 101، الرقم/ 12005، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 59، الرقم/ 81.

(30) أخرجه أحمد في مسنده، 3/ 102، الرقم/ 12015، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 62-63، الرقم/ 89.

(31) أخرجه أحمد في مسنده، 3/ 105، الرقم/ 12040، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 71، الرقم/ 108.

(32) أخرجه أحمد في مسنده، 3/ 107، الرقم/ 12063، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 84، الرقم/ 136.

(33) أخرجه أحمد في مسنده، 3/ 108، الرقم/ 12076، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 89-90، الرقم/ 147.

(34) أخرجه أحمد في مسنده، 4/ 380، الرقم/ 19414، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 120-121، الرقم/ 224.

(35) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج4/ص278، الرقم/ 18478، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 137، الرقم/ 260.